أدونيس

كونشيرتو القدس



لوحة الغلاف: أدونيس

أدونيس

كونشيرتو القدس



الطبعة الورقية الأولى، 2012

الطبعة الإلكترونية، 2012

ISBN-978-614-425-582-7

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 113/5342.

الرمز البريدي: 6114 - 2033

هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على:


DarAlSaqi@


دار الساقي


Dar Al Saqi

i – المعنى

موجز سماوي

عالياً عالياً،

انظروا إليها تتدلّى من عنق السَّماء.

انظروا إليها تُسيَّج بأهداب الملائكة.

لا يستخْدم أحدٌ قدميه في التوجّه إليها،

يمكن أن يستخدم جبينَه، والكتف، وربّما السرّة.

اقرعوا بابَها حفاةً،

يفتحهُ نبيٌّ يعلّمكم السَيرَ، وكيف تنحنون.

مسرحٌ يقودُه الحكيمُ الجبّار.

ويفعل الربُّ هذا كلّه من أجل أبنائه.

- «هوذا أنا. طَيفٌ للقدس»:

صَرختْ على المسرح دميةٌ بثلاثة رؤوسٍ، وغابَتْ.

- «شكا بيتُ المقدسِ إلى ربّه الخرابَ

فأوحى الله إليه:

لأملأنّك خدوداً سُجَّداً تحنّ إليكَ

حنين الحمام إلى بَيْضها».

– «إتّقِ الله يا كَعْب،

هل لبيت المقدسِ لسان؟»

– «نعم. وله قلبٌ مثلكَ».

(عن: كعب)

مسرحٌ يقوده الحكيمُ الجَبّار.

كثيراً رَجَوْتُ الخبزَ أن ينتقد الملحَ

كثيراً سمعتُ من يسألني، خفيةً: «لماذا يتأخَر الموت في القدس، ويظلُّ تقدّم الحياةِ موتاً آخر؟

وكيف يُسجنُ رأسٌ في قبو الكلمات التي ابتكرها هو نفسه؟»

حقاً، يمكزُ الغيبُ في القدس، وهو سيّد الماكرين.

في زاويةِ، في أقصى صحرائي،

غزالةٌ تبكي.

أعرفُ اسمكَ أيّها العصر الراكضُ في شوارع القدس

أمزتُ أن أقدّمَ لك عصيرَ اليورانيوم، وسوف أقول للقمر أن يوقع على دفتركَ،

وللشمس أن تؤرّخ لهذا التوقيع.

وانظرْ: ها هي جدرانٌ تريقُ حليبَ أحزانها

على الأرض، فرحاً بكَ.

وتعرف أيّها العصر،

أن النّمل أكثر علوّاً من الكواكب.

قَدر النمل أن يتحدّث مع سليمان،

ولم تقدر الكواكب.

ربما، لهذا يتنبّأ النمل:

الأحزمة، الأقنعة، الخنادق، الجرّافات، القنابل، الصواريخ، الحقائب، الدواليب، الأدمغة الإلكترونية،

تلك هي الأيّام المقبلة.

ربّما لهذا،

تتحوَل السماء إلى ثُقبٍ سريٍّ في سقْفِ التّاريخ.

«بيت المقدسِ أرض المحشر والمَنْشَر»[1].

«من مات ببيت المقدس، فكأنّه مات في السّماء»[2].

لكن، ها هُوَ امرؤ القيس!

هوذا في طريقه إلى بلاد الرّوم مروراً ببيت المقدس.

قبل أن يضع قدميه على العتَبة، قرأ:

لِلدّم الذي أريق على ضِفاف المتوسّط

منذ البدايات، تاريخٌ مُدنّس.

لهذا التّاريخ الأرضيّ

مُوجزٌ سماويّ اسمه القدس.

لكن، لماذا النّاس فيه اثنان:

ميّتٌ يُقيم في القَفْرِ

وحيٌّ يُقيم في القَبْر؟

كان الليل والنّهار يتصارعان. يحاول كلاهما، باسم القدس، أن يخنقَ الآخر.

كان الوقت يُحوّل المَشهَد إلى شريطٍ وثائقيّ.

غير أنّ امْرأ القيس قال مودّعاً:

في بدء العالم، كانت الكلمة

في بدء الكلمة، كانتِ الدّماء.

مسرحٌ يقودهُ الحكيمُ الجَبّار.

هل تعبتَ، يا امرأ القيس، من السّير في تلك الشوارع التي شقّها الغيب؟

ما أبرعَها في فنّ الاقتفاء،

ما أنْبهَ جُدرانَها في التنصّت.

كلّما حاولتَ أن تعانقَ امرأةً، يسألك حارسٌ:

هل استأذَنْتَ السماء؟

بلى، كلّ ثمرٍ مرٌّ في هذه الشوارع.

مع ذلك، ها أنتَ تتابعُ سيركَ أكثرَ إلحاحاً مِن

ذَكَر نفلٍ جائعٍ،

صانِعاً من خطواتكَ أوتاراً لموسيقى لم تجئ بعد،

محفوفاً بقَصبِ أحلامٍ تنفر من ذكورتها بويضاتُ

الظنّ.

ظنُّكَ أن سريركَ ليلٌ آخر،

وثمّةَ ما يوشوشكَ:

يكذبُ الليل هو كذلك، ولو أنّه صديق الشّمس الأكثر

وفاءً.

غير أنّك تعوّدتَ أن تبدأ دائماً من الصفر،

لأنّك تعوّدتَ أن تَتَنشَّقَ عطرَ اللانهايات.

كانت جدّتكَ، السّماء العُكاظيّةُ، تَضعُ في جيوب

أبنائها عملةً ليست إلا نزداً،

وكانت تُوصيهم أن يطرحوها ليلاً، بين رَمْل النجوم،

إن كانوا يريدون أن يتماهوا مع أحلامهم.

ووفقاً لوصاياها،

كانوا ينثرون قصائدهم على الرّمل،

تبرّكاً واحتفاءً.

أنت الآن تحت سماءٍ أخرى. حولكَ جدرانٌ تنزفُ دماً.

رؤوسٌ شِبهُ مقطوعة لا تتوقّف عن الكلام.

اطمئنّي أيتها الريّح،

الأشراك التي تنصبينها تخبّئ وراءها غاباتٍ من النار.

وثمة ينابيع من الدم تسيلُ من ثقب إبرةٍ تتدلّى من يد السّماء.

كلماتٌ حرابٌ وأسنّةٌ

والبصير هو دائماً فريستُها.

- ملائكةٌ آثروا أن ينقلبوا إلى عُشّاقٍ، وأن يكون المسْكُ العربيّ فضاءً لتشرّدهم بين الحجاز والقدس.

- سماؤكِ نقشٌ لغويّ. أرضكَ حمّالة أوهام. كلّما شهقَتْ كلمةٌ في هذا النقش، تصطكّ

أسنان التّاريخ، فيما تنحدرُ الرؤوس كمثل كُراتٍ دون اتّجاه، وفيما تبدو النجوم كمثل

حُزَمٍ من القشّ.

- تاريخٌ حليبٌ يفرّ من أثداء أمّهاتنا كي يُرضعَ القمرَ وبقيّةَ الكواكب.

- حين تهجمُ العاصفة لا تتسلّح إلا بأجسامنا. تملأُ أيّامنا بغيومٍ سوداء لا يستطيع،

أحياناً، أن يقرأها حتّى الضوء.

- هكذا سنظلُّ نصنعُ النعوشَ قبل الأوان. ندهنها بعطرٍ مما قَبل التكوين. ونقطَعُ

باسمها وريدَ الأرض لكي نُغذّيَ شَرَيان الغيب.

- إقرأْ بُرْجَكَ أيّها التاريخ، وسوف ترى كيف تنقلبُ التوهمات إلى أبراجٍ من الحقائق.

- إلى سرير الفلك، يَستَسْلم جسم التاريخ. وها هو يفكّ أزراره.

الريح تقرأ الوزدَ

والعطر يكتبه.

دَخلت العاشقة حديقة بيتها في القدس حيث يُقيم حبّها.

الأزهار كلّها تحوّلت إلى شباكٍ تطوّق خطواتِها.

ضحكت وقالت:

هَلْ عليّ، إذاً، أن أخيطَ من جديدٍ ثوباً آخر لكل زَهرة؟

أمسِ، حين التقيتُها، همس الليل في أذنيّ:

العطرُ ابنٌ للوردة،

لكنه يُولد شاباً.

(توتّر. مقتل. قَبض. إسعاف. مطافئ. ضحايا. إدانات. منع. تمرّد. خزق. استحقاق. معتقل. اعتقال. سجون. هدم. احتلال)،

قلتُ لخيالي: تجرَأ. ضع يديك على كتفي القدس.

وقلتُ للقدس:

لماذا أنا المقبلُ إليكِ، لا أعرف أن أسيرَ إلا إلى الوراء؟

(إرهاب. خطف. جهة مجهولة. تشدّد. اتّهام. نَفي. نَعي. شَزع. فساد. كُفّار. تزوير. حملة. عنف. قضاء. قاعدة. خطَر. صراع. هيمنة. ملاذ. غزو. اكتساح).

الطريق خيط عنكبوت. وثمة كونٌ بصيرٌ يزدردهُ كونٌ أعمى. المدنُ احتضارٌ، والزمن هدهدٌ عابر.

إلى متى ستظلّين، أيّتها السّماء نائمةً بين يديْ أرضٍ حمراء؟

(صواريخ. عصابات. طوائف. طقوس. هجمات. ألغام. تجارة. اقتتال مذهبي. قصف. انشقاق. تهدئة. سيادة. مُرابَحة. أشلاء. جثث. معارك. حلفاء. أعداء. مسلّحون. اغتيالات. قبائل)،

طفلٌ له هيئةُ النعش تحمله أيدٍ غيرُ مرئية، في اتجاهٍ بلا اتّجاه. قولوا للأبديّ:

فُرقَتكَ التي تدير المسرح

مجبولةٌ من طينٍ اسمه القَتل،

وتَلبس الفرقة نَسيجاً اسمه الهواء.

(نفط: يورانيوم. اختراقٌ للصوت. ذخائر. فضائح. تحقيق. تهريب. قوانين. يمين. يسار. مفاوضات. خيانة. تعذيب. نزوح... إلخ)،

«في القمر شقٌّ إيروسيٌّ تحفرهُ السياسة»، قال عالمٌ فلكيٌّ،

«في الأرض ثقوبٌ تتشبّهُ بثقوب الجسم الإنسانيّ»، قال عالِمٌ في الطبيعة،

بينهما، كان الجُوديُّ الجبَلُ يتحوّل إلى وشاحٍ أحمرَ يلفّ السفينة. وكان كاحِلُ الهواء يُموسقُ رقصه على إيقاع غبار ذَرّيّ.

خيوطٌ وأسلاكٌ تنسجُ عباءات إلكترونيّةً

لمسافرين يجهلون المكانَ،

يجهلهم المكان.

أكداسُ كتبٍ تَرزحُ تحتَها رؤوسٌ لحِجَجٍ خطّها قلمُ المعجزة.

لم أقل ذلك لأيِّ ملاك. قلته لشِهابٍ أخرس، لم يكد يشتعلُ حتّى انطفأ.

هناك من تلطّخ، فانقلب خارجه إلى داخل.

هناك من قرأ فأصابتْهُ عدوى الجهل بكل شيء.

هناك ثالثٌ لا رابعَ له إلا ظِلّه.

الرُّعب نفسُه نغمٌ في قيثار الشَّمس.

- «يا رسول الله، أيّ الخلق أوّل دخولاً إلى الجنّة؟

- الأنبياء.

- ثمّ من؟

- الشهداء.

- ثمّ من؟

- مؤذّنو بيت المقدس»[3].

«لم يُستَشهد عبدٌ قطُّ، في برٍّ أو بَحْرٍ

إلا وهو يسمع أذانَ مؤذّني

بيت المقدس من السماء»[4].

«صخرةُ بيت المقدس على نَخلةٍ،

والنخلةُ على نَهْرٍ من أنهار الجنّة.

تحت النخلة آسيا امرأة فرعون،

ومريم ابنة عمران،

تنظمان سُموطَ أهل الجنّة إلى يوم القيامة»[5].

ماذا نكتب، إذاً، وكيف؟

أهناك معنى لما لا يدخُل في اللغة؟

ولماذا تكون أحزانُ العقل قبوراً لرغبات الجسد؟

- لا نكتب الشيء حقّاً إلا إذا رأيناه

بطريقةٍ يبدو فيها كأنه هو نفسه يرانا.

- كتابةٌ لا هُوّة فيها، لا هويّة لها.

1 عن: أبي ذز.

2 عن: أبي هريرة.

3 عن: جابر.

4 عن: كعب.

5 عن: عبادة بن الصامت.

سماء على الأرض

القدس حلمٌ – لغة. لغةٌ يمتزجُ فيها التاريخ بما قبله، وما بعده. يمتزج بالإنسان والواقع، نهاية ولا نهاية. إنّها التّراب والماء – ولك أن تجبلَ ما تشاء/

(...)

... «كلّم الله موسى في أرض بيت المقدس،

تابَ الله على داود وسليمان في أرض بيت المقدس،

ردّ الله على سليمان ملكه في بيت المقدس،

بَشّر الله زكريّا بيحيى في بيت المقدس،

سخّر الله لداود الجبال والطّيرَ في بيت المقدس،

تتغلّبُ يأجوج على الأرض كلّها غير بيت المقدس،

ويهلكهم الله في أرض بيت المقدس،

أوتيت مريم عليها السّلام فاكهة الشتاء في الصّيف،

وفاكهة الصّيف في الشتاء في بيت المقدس،

ولد عيسى عليه السّلام وتكلّم في المهد، في بيت المقدس،

وأُنزلت عليه المائدة في أرض بيت المقدس،

ورفعه الله إلى السّماء من بيت المقدس،

وينزل من السماء إلى الأرض في بيت المقدس.

هاجر إبراهيم عليه السلام من كوثا إلى بيت المقدس،

أُسْرِيَ بالنبيّ إلى بيت المقدس،

تكون الهجرة في آخر الزّمان إلى بيت المقدس،

يُنْصَبُ الصّراط على جهنّم إلى الجنّة ببيت المقدس،

ينفخُ إسرافيل في الصُور ببيت المقدس،

والحوتُ الذي الأرضونَ على ظهره:

رأسهُ في مطلع الشّمس،

وذنَبهُ بالمغرب،

ووسطه تحت بيت المقدس،

تخربُ الأرضُ كلُّها ويعمرُ بيت المقدس،

أوّل بقعة بُنيث من الأرض كلِّها موضع صخرةِ بيتِ المقدس.

تظهر عين موسى في آخر الزّمان ببيت المقدس...»[6]

(...)

... إنّها القدرة على تحويل الحُوتِ إلى كناريٍّ والبقَرةِ إلى مِنجَلٍ للحصاد.

... «وبذلك الطريق سارتْ قطعان عَددٍ لا يُحصى من الزّعماء الكباش والنّعاج المسمَنة والخراف والحملان المجزوزة الصوف والإوزّ البريّ والعجول المخصيّة المتوسّطة الحجم والأفراس المصدورة والعجول الجَمّاء والأغنام الطويلة الصوف والحيوانات الاستيلاديّة...»

(...)

«وهناك أصوات وطء أقدام وقوقأة وجُؤار وخُوار وثغاء وخرخرة ونخار وقضم واجترار للخراف والخنازير والأبقار الحُبلى

(...)

«... يحملون سعفَ النخيل القيثارات السّيوف تيجان الغار (...) أصفاد فؤوس أشجار جسور أطفال في أحواض اغتسال أصداف مقصّات مفاتيح ثعابين بأجنحة ومخالب خنازير مصابيح ملاعق نجوم أفاعي سفادين علب فازلين أجراس عكّازات كلاليب قرون وعول صقور أحجار رحىً وحيد القرن (...)

يرتّلون فاتحة القُدامَى التي تبدأ قومي استنيري

يا أورشليم (...) ويقولون:

كلّها تأتي من شَبا»[7].

ما هذا الرأس الذي ينخلهُ الهذيان؟ ما هذا الجسم الذي تَنْخُرُهُ مخالِبُ التوهّم؟ هل الإنسانُ هو نفسه خُرافةُ الدّم واللحم؟

هياكلُ عظميّةٌ، جماجمُ، أوردةٌ وشرايين، آذانٌ وعيون:

أدواتٌ وآلاتٌ يحفظها الغبارُ في ثيابه وتحتَ وسائده.

لكل أداةٍ ولكلِّ آلة أسنانٌ من الذَّهب، كمثل آياتِ تَنْحتُ ذَهَبَ الكلام.

لو كان الغبارُ يعرف أنْ يقفَ على قدميه، لكانت السّماء مجرّد سِوَارٍ ضيّقٍ على كاحله.

ما للدّهشة تَفْتَرُ؟ ما للوقت يستسلمُ لِتباريحه؟ إن كانت هناك أبديّةٌ فهي الثلج المعمِّر شقيقُ الغبار. وانظروا: على كلِّ عتَبةٍ، وفي كلِّ مُفتَرقٍ ميْث يَحَارُ فيه نعشه:

هل تحملهُ الملائكة،

أم أنّ عليه، هو، أن يحملها؟

يا قدس، يا قدس!

في عصرك البرونزيّ، كانتِ التفاحة امرأة.

في عصرك النفطيّ – الإلكتروني، صارث التّفاحة قنبلةً:

تحوّلٌ

لا تتّجهُ فيه الصواريخ إلا نحو بيوت العُشّاق.

عُشّاقٌ: بعضهم يحمل أوراقه ويمضي في اتّجاه عصر الحجَر، وبعضٌ يحمل أوراقه ويضيع:

يجهل أنّى يمضي، وأين، وكيف يتّجه؟

من بين أثداء الكواكب، يهرب ملائكة اليقين، ويجيئون إليكِ. يغتسلون بمائكِ، وينحنون لنخيلكِ. يشدّون السّماء من شعرها، ويقودونها إليكِ. تَنْسَلِبُ السماء من السماء، وثُمسك حبالهم بعنق الأرض.

توازنٌ ديموغرافيّ!

أناسٌ يجيئون إلى القدس من أطراف العالم،

أناسٌ ينبتون في طينها ومائها.

ثلاثة وافدين مقابلَ مقيم واحد.

المقيم يرحل، والوافد يقيم

توازنٌ ديموغرافيّ!

وليس هناك بابل ولا آشور.

إنّه الهَدْمُ، هدم الحَجر والبشر.

إنّها السياسة – مِغماراً آخر.

لا شرْق في شرق القدس، والقُرى حولها سديم.

مُنعزلاتٌ تحفُّ بها الشرطة من كلّ نوع.

وأين القانون الدولي؟

لا يُقرّ ذلك. بل يعدّه جريمة.

ولماذا يظلُّ صامتاً؟

لعلَه التّجاوُبُ مع «الترحيل الصّامت». أو لعلّه الصّدى.

إنّها القدس تتشقّق وتنهار ـ

الحوضُ المقدّس الحوض التّاريخي،

قديمُ المدينة،

سفوح جبل الزيتون الغربيّة،

سلوان

وادي حلوة

حَيّ البستان،

حيّ الشيخ مدّاح،

وادي الربابة... إلخ، إلخ.

إنْغَرسْ أيّها الوافد،

انْقَلِعْ أيّها المقيم:

تلك هي اللّازمةُ في موسيقى الله:

والمجدُ لإسطبلات سليمان،

اسرحي فيها كما تشائين، وحَمحِمي، يا خيول الملائكة!

بَطْنُ المكان ينتفخ،

والوقت يلتهم الأجنّة وأرحامَها.

ما هذه الظّلال التي تجهلها الشَمس،

ما هذه الأجراسُ التي تنكر أصواتَها،

ما هذا النَّرجس اللاهوتيّ الذي يتمرأى في الغيم؟

بلى، بين الواقع واللغة خنادقُ لا تُزدم،

وأهلاً بكَ، أيّها اللاَشيء الملك.

لا حياةَ في الحياةِ، يا مَزيم،

لا حياة إلّا في الصُورة،

غداً، من سيُلقي عليكِ السَلامَ،

في هذه الظَلمات التي تتعانقُ وتتآخى؟

رئة الكلام تَخرجُ من قَفصها الصَّدري،

وبين جدارَين: البكاء والمبكى،

يأتي ويذهب قطار التاريخ.

لماذا، لماذا تكذبين أيتها النّجوم؟

طرقٌ كمثل أخاديدَ في وجه المعنى،

تشقّها عَرباتُ الأباطرة.

حولها بشرٌ يحتفون،

حولها منصَاتٌ من الآلات والبيارق،

حولها أكفانٌ وحفَّارون وقبورٌ.

دَمُ الآلِةِ يهدرُ،

دمُ الطفولة يتخثّر،

علّمينا، أيّتها الأرضُ كيف نغسلُ هذه الصِّبغة؟
هل سنظلّ إلى الأبد،
نُصَعَقُ ونُجَرُّ
وراءَ جحافلِ أنسابِنا؟
«على هذه الأرض ما يستحقُّ الحياةَ»، يقول زرادشت بلسان نيتشه،
أين هي، إذاً،
مطرقةُ الحريّة؟
أين هو، إذاً، سندانُ العقل؟
كيف للإنسان، خالِق المعنى،
أن يكون مصيرُه مُرْتَسِماً في لفظةٍ؟ وكيف لروحه أن تنسكب في جدار؟
لم يعد أحدٌ يعرف إلا الاسم،
كأنَّ الأشياء غير موجودةٍ إلا لَفظاً.
القشرة تلتهم اللبّ
والغبارُ اسمٌ آخر للغيب.
وما أشدّ في هذا كلّه بؤسَ الإنسان:
يَهبط في قارورة الأُنْثَ أنثَ،
يَصعد في دخان لَبيّكَ لبّيك.
وها أنتِ، أورشليم – القدسُ،
تتزلّجين على ثلج المعنى
وللسّماء فيكِ جنٌّ وعفاريث
يهيمنون على محيطات اللّغة.

من قبْرٍ، من نقْشٍ، من عشبةٍ لها شكل الثّديين، من طحلبٍ يتسلّق حائطاً رطباً،

تنبعثُ رائحةٌ تتمازجُ فيها الرِّقّةُ والرِّقُّ، وتطوف حوله الشياطين والملائكة في رقصٍ كأنّه الموج.

أنا، الفقيرَ إلى رغيفٍ، يلذُّ لي أن أكون فيكِ الإعصارَ والزلزلة،

أشهدُ فيك النّهاية واللانهاية في نَبْضٍ واحد،

وأُشهدُ عليكِ الطبيعةَ –

الطَّبْعَ والجنسَ والحدْس.

6 عن: قاضي القضاة، أبو اليمن القاضي، مجير الدين الحنبلي 860-928 هـ في كتابه: **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**.

7 جيمس جويس، **يوليسيس**، ترجمة: صلاح نيازي.

حَبلٌ بين النَاقة والدَبابة

أ. تاريخ/ الراوي

«الواقديّ (تـ 207 هـ)، اليعقوبيّ، الطبريّ، ابن البطريق، الإصطخري، المسعودي، المقدسي، ابن عساكر، أسامة بن منقذ، العماد الأصبهاني، ياقوت الحموي، ابن الأثير، أبو شأمة، ابن العبري، ابن فضل الله العمري، ابن خلدون، المقريزي، ابن شاهين، ابن تَغري بردي، شمس الدين السيوطي، مجير الدين الحنبلي (تـ 928 هـ).

هؤلاء كلّهم رسموا صورة القُدس: وانتشوا بمعناها وبشّروا به».

ب. تلخيص/ المحلل

«قالوا: ليست القدس في عقل المسلم وفي مخيّلته، أرضاً بقدر ما هيَ سماءٌ – جنّة.

في صورتها ذابَ المسلم: أصبح موجوداً، لا في نفسه، بل في هذه الصورة. وفيها خرج من نفسه، وراحَ يتشرّد في لغتها – في اللغة. كلامه عليها لا يصدر عن ذاته. يصدرُ عن هذه الصّورة، لكن بلسانه. بل إنّ هذه الصورة – المخيّلة هي التي تتكلّم».

ج. توثيق/ الدّين

«من أرادَ أن ينظرَ إلى بقعة من بقاع الجنّة،

فلينظرْ إلى بيت المقدس».[8]

أرضٌ – في كلِّ حجر تتناسل دبّابةٌ، في كلِّ شجرة تُعسكر قنبلة.

فوقهما وَحْيٌ يتدلّى في شكل دخانٍ أحمر.

من المتوسّط، هذا البَحر الواحد الأحد، يَنْبَجسُ يَرقَانُ العصْر.

جدرانٌ تمتلئ بالأكوان كلّها وتفرغُ من جميع الأسرار. فضاء قشٍّ وكبريت. وثمّة أصنامٌ تعقد أحلافاً ضدّ الكلمات. وثمّة دُمىً تتذابَحُ تحتها. هنا وهنالك مَسْرحٌ لصلب البشر على قرون الملائكة.

مَهلاً، أيّها الطوفان الذي لا يحملُ في فلكه إلا الجنّة. وانظري، أيّتها الفُلْك، هل تستطيعين أن تري على الضّفاف، أو في الأعالي، رجلاً أو امرأة؟ اللّحظة حديدٌ سفّاح، وكلّ دواء داء.

ثلاث مرّاتٍ، ارتجفتِ الأرض في فَم السّماء. ملايين المرّات ارتجفت أفواه البشر. وليس لمجهول الكون بيضةٌ تلوّح لعجيزة أنثى نبويّة، أو تسقطُ ناضجةً في حضن ديكٍ إلهيّ.

أظنّ، مع ذلك، أنني سأستقبل حافيَ القدمين، أنثى هذا المجهول في حديقة الشّعر، ذات ليلةٍ مقبلة. وسوف نقول معاً ليد الحبّ: امشطي شعر القدس وقدّمي لها مرآة الشّعر لكي تتمرأى فيها.

يا قدس، عجباً، لا تلدين إلا نفسك، مع أنّ فَرَجَ الدّنيا يتأرجحُ بين فخذيكِ. لصَدركِ شكل القبر، ولحنجرتكِ شكلُ القنبلة. أين الأغنية التي ستوحّد فصولك في نبض واحد؟ أين الطّريق التي ستقرأ خطواتك كأنّها كتابٌ كريم؟ أسألكِ. وأعرف أن السؤال هو نفسه الويْل.

وماذا لو أحصينا عددَ الجماجم التي تدحرجث باسمكِ، في أنفاق التّاريخ وعلى مدارجه؟ ألن تكون كافيةً لكي نرفعَ سماءً أخرى بحجم السماء؟

هل نقول، إذاً، طُوبى للسماوات التي لا يَرويها هي أيضاً إلا دَمُ الأرض؟ وهل نقول: طوبى لهذه الأرض التي لا تقدر، احتفاءً بالسماوات، إلا أن تكون مقبرةً؟

انتبهوا، أيّها العابرون، لكلّ منكم على هذه الأرض هاويةٌ في تلك السماء.

آهِ، لو ترينَ، لو رأيتِ كيف تتمزّق رئاتُ البشر، أطفالاً وشيباً، رجالاً ونساءً، وتتبعثرُ باسمكِ بين أحذيةِ السّائحين وأكداس الصّلوات. كيف تُرْتَجلُ باسمكِ القيامةُ، وتنقلبُ أرحام الأشياء إلى جُثث وأشلاء. كيف تَرتجفُ البيوتُ والشوارعُ والأجواء في القَصْفِ الإلهيّ المتواصل تحقيقاً للنبوءات والرّسالات. كيف تلجأ الكائنات العزلاء، حشراتٍ وزواحفَ، هرباً من الهوْل، إلى ظلّ رجاء، أو إلى وِكْر دعاء.

«لا تقتلوا الخفّاش، فإنّه استأذنَ البحرَ أن يأخذ من مائه، فيطفئ بيتَ المقدس حيث حرّق».

(ولهذا الكلام هذه التتمة: «ولا تقتلوا الضفادع فإنّ نقيقها تسبيحٌ»)[9].

آهِ لو ترين، لو رأيتِ، كيف ينكسرُ الشجَرُ والزّهرُ، وتنخسفُ الحُقول، ويتقَصفُ السَّرْوُ، وكيف تحاول الأحجارُ نفسها أن تفرَّ إلى أحضان أمّها الطّبيعة، في أيّ اتّجاهٍ، في أيّ مكانٍ، بعيداً بعيداً عنك.

وها هو الأفق يئنّ، والفضاء يرتعد، فيما يترصّد الزّلازل الآتية. كل نهاية بداية: لا شيء تعلّمينه إلى أبنائكِ إلاّ الموتَ. وما هذه الحياة التي لا تحيا إلا رهينةً في قفصٍ إلهيّ؟

كلّا، لا أخافُ،

لا أخاف إلا من جموعكِ التي لا تعرف شفاهُها أن تَنفَصلَ عن ثدي الموت.

كأنّك فرَسٌ يقاتل بعضها بعضاً في ساحةٍ واحدة، في معركة واحدة، انتصاراً للواحد. فرسٌ كلّ عضو فيها يرقصُ على جثّة عضوٍ آخر. يا لهذه المائدة المتواصلة: سلالةٌ لسماءٍ واحدة يأكلُ رأسُها قدميها، وتلتهمُ أنيابُها ما تَبقّى.

هكذا تحرثين الفراغ، ولن تكونَ لكِ أيّة معجزة. ليس في جسدكِ غيرُ التصدّعات، ودمكِ في احتضار بطيءٍ، بطيء.

هل أخْطأتِ السّماءُ فيكِ، أم تعرفين مُخْطئاً آخرَ أشدَّ غَطْرَسَةً وفتكاً؟

وها هي نواحيكِ: لا تُقاس إلا بالأشلاء.

صَمْتاً، صَمْتاً، أيّها الشاعر،

قُرصانٌ يُمْسِكُ بيَدِ القمر ويُهيّئ الزَّخف. هل سيحدث،

يوماً، أن تَشهقَ السَماءُ غضباً،

وتَصرخَ:

كلّا، لا رجاءَ فيَّ، ولستُ السَماء؟

8 عن: ابن عبّاس.

9 عن: عبد الله بن عمرو بن العاص.

جسرٌ نحو أيَوب النَبي

أ.حارة المغاربة

هل سيقدرُ ذلك المُتحف، «متحف حائط المبكى»، أن يسلّم على سُئونوَةٍ، أو يصافح البحر الأبيض المتوسّط الذي صافحه قدموس وعوليس؟ هل سيعرف كيف يحيّي امرأةً تسمّتْ أوروبّا باسْمِها؟

سلامٌ عليكِ، أيتها الخطوات البشريّة التي تحوّلت إلى غُفرانٍ كأنه الطبيعة.

حَقّاً، للتاريخ طبقاتٌ سفلى. والغبار يستهزئ بحقائق الماء. وما هذا التّاريخ الذي يجهلُ الفرقَ بين الدّمع والحِبْر، وبين المسمار والحرف الأبجديّ؟

حَفرٌ في الرأس، لا في التراب. زياراتٌ لأطياف وَحْيٍ غير مكتوب. زَبدٌ يطيحُ بعرش الماء.

يا لهذا النظام الذي لا ينهضُ إلا على أشلائه. بين بِرَكِ سليمان تبحرُ سفينةٌ لا من الغرب لا من الشّرق.

من هباء المعنى.

تبرَكوا بهذه البِرك.

لا مرفأ في حارة المغاربة إلا في اللغة – جرحاً مفتوحاً، كشعر أيّوب.

قل لي، يا شعر أيّوب:

السّجن، التّنكيل، التعذيب، التجويع، الطّرد، النفي، القتل – أهذه هي حَقّاً تلك الملاعق التي تركتَها على موائدك الكريمة العالية؟

ب. أغنية

رَجلٌ عاشقٌ قَيدهُ
زوجةٌ في نقابٍ،
طفلةٌ في حجابٍ
ولحمٌ حلالٌ.
فندقٌ مطعمٌ، ومقهى، وجبّانةٌ.
لا تناقُضَ إلاّ
بين تُفّاحَةٍ وابنِ رُشدِ.

أيّتها المائدة التي يرتجفُ تحتها صدر الأرض، تضوّري جوعاً إلى ملعقةٍ تخرجُ الآن من جوف حوتٍ، وإن شئت إلى الحِبر، ذلك الوحْل الملائكيّ. بالألوان تطمْئنين التّاريخ. ترسمين لوحةً للعَصا التي تحوّلت إلى حيّةٍ. للبحر الذي فتحَ فخذيه لكي يعبرَ بينهما التائهون. للجبل الذي استضاف نوحاً وطوفانه وفُلكه. لِلرّعب الذي لا تتّسع له أيّة لوحةٍ ويَسْخَرُ من جميع الألوان.

تضوّري جوعاً، أيّتها المائدة. تضوّري جوعاً.

ج. تأمّلات

ماذا يقول الأطفال لهذه الكرة التي يُدخرجونَها والتي سمّوها الحياة؟ كيف يُمسكون بالعالم، والقيود كلّها تُحبك حول أعناقهم، منذ نشوئها في مِنْجم الغَيب؟

آثارُ وَخيٍ تتموّج في شعر أيّوب. جنانٌ. أنهارُ عسلٍ. وِلْدانٌ. بقايا كُتُبٍ محتها الكتابة.

إلى الساحة، أيّها الجنود الملائكة. القادة يسبحون في غبار سَراويلهم.

الستارة سوداء، ولا ضوءَ تُمسك به النّوافذ.

د. رواية

لم أرَ القمر يقاد مخفوراً إلى مرفأ الكتب السماوية كما رأيته ذلك اليوم. كان كمثل حصاةٍ تُفرك بين الأصابع. لا هذه التي تزدهي بها اليدان، بل تلك التي تتوّج القدمين. وكان يجلس مُنهكاً في لباس العمل كأنّه رضيعٌ فصلته أمّه الشّمس عن ثدييها. وكان يحيطُ به شِعرُ أيّوبَ، القَبْلُ والبَعْد، الغضروف والعظْم في سُرادقٍ من طيور الجثة.

قِشرُ تُفّاحةِ

تنزلقُ عليه قدمُ حوّاء.

هَتَفَ الزّقاقُ:

- «أين القوس، أيّها البارئ؟»

لم تكن العصا التي تحوّلت إلى حيّة تعرف أنّ كلّ زقاقٍ في القُدس مستودَعٌ لدعاء يناقضُ بعضه بعضاً. أو أنّ الصلوات التي تعرج على سُلّمها الخاصّ مُلقّحةٌ بأنين أصواتٍ مِمّا قبل الطّوفان.

هـ. أغنية

ما الذي يقرأ الدَّينُ أو يكتب الشّعر، إن قَصَمَ الغيبُ ظهر البلاد، و«زُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالها؟»

وَهيَ الأرضُ، كوكبُ أيّامنا الشّاردة:

الملائك فيها، وشياطينُها

والألوهةُ – مرموزةً ومحسوسةً،

رَحِمٌ واحدة؟

و. خبر

تلميذٌ يعبرُ حاجزاً.

دنّس ما لا يُدنَّس.

يكفيه السّجن إلى أن يلاقي فيه الشّيخوخة.

رائحة دَمٍ في الزّقاق يتدفّق منذ الطّوفان. يخضع التدفّق إلى فَحْصٍ مدنيّ، وإلى رقابةٍ عسكريّة.

لا يفيد العطش إلى المعرفة إلّا إذا كانت خوذةً.

على جبلٍ من القمامة تَرْقُص الذرَّة.

جيشٌ إلكترونيّ يقوده مَلاكٌ أحمر.

وكلّ آلةٍ آفة.

ز. قول

إلى أيّ جدارٍ تُشيرُ يا شعر أيّوب؟

هذا الجدارُ يصعدُ من رَمْلٍ لم يحدث مرّةً أن صار متاهةً. حدث أن صارَ شراعاً. واختلطَ فيه ذَهبُ القوانين بفضّة الهياكل.

ويهبط ذلك الجدارُ من ناطحاتِ كواكبَ لم يحدث مرّةً أن صارتْ أفقاً. حدث أن صارتْ أسلاكاً شائكةً،

وطيشاً في رأس الهواء.

للجدار أكثر من حياةٍ داخلَ هذه الفانية – الدُنيا. غير أنّه في الآخرة الباقية مجرَّد قميصٍ عسكريَ، يحرسُ مأوى يغصُّ ببَشَرٍ يعذّبهم جَلّادون إلهيّون.

قلَقٌ في شقٍّ شماليٍّ من الجدار. مع ذلك، تظلّلهُ كلماتٌ تعرف الغيب. يظلّله كذلك نومٌ يكادُ أن يكون يقظةً. وتجرؤ الشمس فوقه أن تعترف بأنّها شيّخَث. وأنَ لها في ظلّه نافذةً تطلُّ على المتوسط – البَحرِ، لا توسُّطَ فيها: إمَا القبرُ وإمَا السماء.

لكن، ما أقربَ القبر، وما أبعدَ السّماء. ماذا أقول؟ كلّا، لم تعد هناك سماء: السّين سيفٌ، والميمُ موتٌ، والألفُ أبوّة، والهمزةُ فراغ.

ح. أسئلة

أسألك، يا شعر أيّوب،
كيف يقيمُ جسراً يصلُ بين طرفين،
شخصٌ لا يرى إلا طرفاً واحداً؟
وماذا تقول امرأةٌ تتغطّى بحجابٍ من القطن أو الحرير،
لامرأة تتغطَى بحجابٍ من الفولاذ؟
(...)

«من الأمم الذين حواليكم تقتنون العبيدَ والإماءَ، وتقتنونهم أيضاً من أبناء الغرباء المقيمين معكم ومن عشائرهم الذين عندكم، المولودين في أرضكم. هؤلاء

تأخذونهم لكم، وتُوَرِّثونَهم لبنيكم مِن بعدكم ملكاً لهم، فيستعبدونهم ما داموا أحياء...»[10]

أسألك أخيراً:

ما تكونُ بلادٌ يديرها القتل، أو تؤسّس لها الجريمة؟

(...)

«ويلٌ لمن يبني مدينةً

بالدّماء، ويؤسّسها بالإثم»[11].

ط. أسئلة أخرى

حين أقرؤكَ يا شِعر أيّوب، أرى كيف تتأرجحُ فيكَ وتتكسّر هذه القصبة التي تُسمَى الإنسان.

أليسَ الآخر نبضَ اللانهاية فيك؟ أليسَ ذاتَك الثانية؟ أين آخَرُكَ

يا شِعر أيّوب؟ ولماذا لا تكفّ عن مَحْوِهِ؟ كأنّك

لا تكفّ عن مَحْوِ نفسكَ، أنت أيضاً.

أأنتَ سفرٌ إلى الأطراف القُصوى؟

إذاً، أنتَ والآخرُ واحد.

أين آخَرُكَ يا شعر أيّوب؟

10 اللاويين: 25: 44-46.

11 حبقوق، 2: 12.

تشريح

1. إصطبلات سليمان/ المسجد المَرْوانيّ

النّمل، هو كذلك، يُصلّي لسليمان. لم يبق طائرٌ إلا نقل رسالة إلى إحدى نسائه. وكان مروان أوّلَ بين الأوائل الذين صَدّقوا وآمنوا.

2. تلة باب المغاربة، أيضاً وأيضاً

تتدلّى فوقها مقبرةٌ على حَبْلٍ يربطُ سُرَّةَ الشرق بشفتي الغرب. مقبرة شبهُ طائرة. تكاد أن تملأ الأجواء بأنينها. بين ساحة البُراق والحَرم الشريف تضحك أشجارٌ يلتصقُ عليها الغُبار.

الهواء مهذارٌ. لا ينامُ إلا في غُرفٍ صامتة. يحرسها الأمْنُ جلوساً في مركبات عسكرية تقذفها الملائكة في أحضان القدس.

3. حائط المبكى/ حائط البُراق

البكاء بَرْقٌ حيناً، وحيناً بُراق.

يتعطّرُ الحائطان بخطوات الله وأنبيائه ورسله «الذين لا نفرّق بين أحدٍ منهم».

للورد الأحمر بين الحائطين ظلٌّ يتدثّر بثوبٍ أسود.

4. النفق الغربيّ/ نفق عين سلوان/ نفق وادي حلوة

ستُضاء الأنفاق بمشاعلَ تحملها الآفاق.

أنفاقٌ تتجشأ الموت، فيما تبتلعُ الحياة.

أصواتٌ تنبعثُ من جوف الأرض. أهي حوارٌ بين سليمان والهدهد وبلقيس؟

النّمل يغارُ، ويسترقُ السّمع.

5. كنيس أوهل يتسحاق

اسألوا الصّلاة نفسَها، وسوف تقول لكم: خيرٌ لي أن أكون رَقْصاً.

العقار الذي بُنيَ فيه الكنيس لا يزال يشكو. يرافقه، بُكاءٌ، حمّام العَين. يرافقه المسجد الأقصى، أحياناً. ويكون خان تنكز المملوكيّ مأخوذاً بالبحث عن ماءٍ للوضوء. دائماً تفوته صلاة العشاء.

يتسلّل إلى ساحة البراق ويراقبُ فيها وحولَها ملائكة الحزن.

6. بيت هتسلام/ بيت شارون

ما جدوى بيتٍ يفتقد حتّى الماء والهواء؟ وليس حوله أي طائر. هُسْ! عسكريٌّ يتنكّرُ في شكْل عمود.

7. باب العمود

ماذا لو زُلزلَ المُعجم، وسُمِّيَ الباب عموداً، والعمود باباً؟

تضع الطريق الرّومانية قبّعتها على باب العمود، حاملةً زهرةً في اتّجاه طريق الواد – كاردو – ديكامانوس. بيزنطية، الخلافة الأمويّة، الخلافة العباسيّة، الصّليبيّون، الأيوبيون، المماليك، الإنكليز – تُسمع أصواتهم اليوم، وتُمكن حتى الآن، رؤية الغرف التي ينامون فيها، وأسرّة الجواري.

8. مغارة سليمان/ (مغارة الكتان)

هل ثوب المرأة جزء من بشرتها؟
أعترف أنَّ في السؤال جرعةً من شرابٍ مُسكرٍ.
هل يقدر سليمان أن يتحدّث مع مغارته؟

9. أرض الصّبرة

ما أغربَ عذاب الأرض:
لا يمزّقها هي. يمزّق من يَسيرُ فوقها.

10 . سوق الخواجات

ماذا تفعلُ الذّكريات التي تتجوّل في أكياس القمامة؟ سِروالٌ: قَزنا غزال.

11. برج اللقلق

موسيقى تبكي في أجنحة اللقالق. رقصٌ يعتذرُ لأعشاشِها.

12. عين سلوان

لِلسّحر في فلسطين عينٌ لا تراها العين.

13. أرض صيام

لا بأسَ أن ترجئ صيامكَ، أيّها الأفق. أفْطِرْ، لكي تقدرَ أن تُمطر.

14. وادي النّار/ وادي حلوة

نارُ الوادي وادي النار. وكلّ وادٍ حوض، غير أنّ وادي حلوة سؤال.

15. تلة الضهور (مدينة داود)

عجباً! كيف قبلت مدينة داود أن ينقلبَ اسمُها إلى تلّة الضّهور؟ وكيف لم تتزلزل قارّة اللغة؟

أيّتها الدبابات، أيّتها القنابل، تقول لك الطاقة: مزّقي البشر، أوّلاً. ثمّ الكائنات الأخرى، لكن بلطفٍ، وسمِّي هجومَكِ دفاعاً، أو سعْياً إلى السّلام. تعرفين أنّ الله هنا كائنٌ مُتخيَّلٌ، وأنّ الشيطان كائنٌ واقعيّ. اصرخي، إذاً، عليك أيّها المؤمن أن تفرّ من الواقع. ولماذا تعيشُ فيه؟

الهربَ، الهربَ إلى ما وراءه.

16. عين أم الدَّرج

امرأة ليست سمكةً ولا جنيّة ولا حوريّةً تعيش هانئةً في هذه العين.

17. شارع السّلسلة

سلسلةٌ من أجنحة اليمام تجرّ، برفقٍ، يمامةً جريحة.

18. شارع الواد

من يعرف كيف يختبئ داخل صوته؟

19. طريق الآلام

لا شيء خُلقَ، لا شيء يُخلق في فلسطين إلا بدءاً من هذه الطريق.

والقَبْرُ مَبنيٌّ قُدْسيّ.

20. قُبّة الصخرة

هل تكفي فلسطينَ صرخةٌ أن تتأرجح فوق رأسها قُبّةُ العالم؟

هل يكفيها أن تثقبَ دموعُها صخرَ التّكوين؟

نهارها يمتطي فرسَ الليل،

وليلها يمتطيه البُراقُ:

بعضُ السّفر تاريخٌ،

وبعضهُ تأويل.

وفي كلّ ضالّةٍ تنحفرُ هاويةٌ للضلال.

يا لهذه الطبيعة/ الجنين – الطفل – القبر/ القبر – الجنين – الطّفل.

خذُوها في استدارةٍ، في مثلّث، كيفما شئتم، أنّى شِئتم،

لا نهاية

إلا في هذه اللانهاية.

كانت يمامةٌ تشهقُ في كتَفِ القُبَة. كان سِراجُ القبَة يرفرفُ كمثل فراشةٍ تتجنّح باللهب.

رجل وامرأةٌ يتعانقان أبيض سوداء انتظروا ألوانَ الولادات.

لا ترفع إصبعكَ أيّها التاريخ لكن أنتِ ارفعي إصبعَكِ أيّتها الأبديّة.

21. النَّفق – (عين سلوان، وادي حلوة، النَّفق الغربيَ – أيضاً وأيضاً).

النَّفق هو أن تُولدَ حيث تشاء، قبل أن تُولد. أن تكون لكَ جذورٌ وأنسابٌ حيث لا تعرف ولا مكان لها. أن تقول: ما فوق النّفق لي، وما حوله، وما قبله، وما بعده. و«لتنفجر السَماء غيظاً»، يقول سيّد النَّفق. وقل يا سيّد النَّفق: سأنتخبُ الرّيحَ التي أشاءُ لكي تحمل بساطَ المعنى. وسآمرُ الفضاء لكي يأمرها بأن تكون ليّنة رُخاءً مطيعةً لا تخرج من نَفَقٍ إلا لكي تدخلَ في آخرَ أكثر امتداداً وعمقاً.

وأنتَ أيّها المقيمُ، تكوّرْ داخلَ بيتكَ. لا تخرج إلا عندما يقول الضّوء الحارس الطالع من النّفق: اخرج. إذ لا مهربَ من نَفَقٍ إلّا عِبْرَ نَفَقٍ آخر. المستقبل أنفاقٌ.

الأطفال في هذا المستقبل صناديقُ، دُمىً، عُلَبٌ ملغومةٌ، صراصير مُقنبلة، حديدٌ مطبوخٌ
بتوابلَ من كلّ نوع.

من النّفق تخرجُ أسراب أسماء. لكلّ اسمٍ زيٌّ كتبت عليه هذه الشاهدة: مِن التراب جاء العرب وإلى التّراب يعودون.

النّفق تاريخٌ آسنٌ.

حتى لو تركتَ النّفقَ إلى فراغه، أيّها المُتاجر بما ليس إلا فراغاً، فإنّ النّفقَ لن يتركك.

«ثمّة شموسٌ لا تُشرقُ إلا ليلاً»، يقول لك، فيما يمدّ لك حبل الغواية.

اسْتَرِقِ النّظرَ إلى بداية النّفق، وسوف ترى فيه نهايتكَ.

النّفق نعشٌ آخر.

الطريق هنا ضيّقةٌ لكن غير بعيدةٍ عن الجّنّة.

تاريخٌ – ماءٌ اصطناعيٌّ تسبحُ فيه السّلالات وأنسابُها.

لم يتركْ شيئاً إلا تحدّث عنه – لكنه لم يقل أيَّ شيء.

أعمى لهُ شكل ملاكٍ يتكئ على باب النّفق:

هل ما يُقال هنا حقيقة؟

أوه، كيف إذاً، تجرّأتَ على النُّطق؟

أكمِل أيّها الأعمى:

النّفق مليءٌ بالنساء، لكن، ليس فيه إلا رحِمٌ واحدة.

رحمُ امرأةٍ كان اسمُها حوّاء، طلّقها زوجُها، وكان اسمه آدم.

هكذا، للنّفق عاشقٌ واحدٌ: الجدار.

مع أنّ في النّفق أنفاقاً كثيرة.

لا نزال نتأرجحُ على فوّهة الهاوية، يقول الأعمى.

لم أكد أقول: القدس ثوبٌ، حتّى هجم العربُ جميعاً
لكي يلبسوه، قال النّفق.

6

تباريح

أ. أسئلة

* لماذا كلّ ذرّةٍ في رماد فلسطين جرحٌ مفتوحٌ؟
لماذا، هذا الجرح يصنعُ الحياةَ، لكن بآلات الموت؟
* هل تاريخ فلسطين خَريفٌ هاجَرَ خارج الفصول؟
* لماذا يتجعّد في لغة القادة العرب وجه الخليقة؟
ولماذا تعجُّ هذه اللغة بقطاراتٍ لا تحمل إلاّ الطّرقَ
التي لا مخرجَ لها، والتي لا تنتهي؟ ولماذا يرسم
هذه الطُرق قادة آخرون لا يتشاجرون إلا مع
الشجر والماء.

ب. رسالة إلى حزقيال النبي

حزقيال أنت الرّائي،

حدّق أيضاً وأيضاً. لا يزال الخرابُ خبزاً يوميّاً في أرض الله. هل تتحوّل النبوءات هي كذلك إلى حصار؟ هل تنحفرُ الخنادقَ في كلماتها؟ هل تتشظّى رؤاها في صواريخ، في قنابلَ، في براكينِ غازٍ وفوسفور؟ وهل حقّاً أصبحتَ، أيّها الرائي، صديقاً لِمنْخَريْ هذا التنّين؟

وأكادُ أن أسألكَ: هل التقيتَ هيروديا؟ وما لوحش الزّمن يتقنّع بملاك الأبديّة؟ وما لتلك المسكينة، أتان

النبوّة، بدأت تتعثّر وتَعْرُج؟ وماذا نفعلُ، نحن أبناء الجارية، والأرض كلّها جاريةٌ في أحضان النبوّات؟

فاض الحديدُ صاعداً هابطاً على سلالم الصّلاة.

الورَمُ والدُّهنُ آدمُ الحياة وحوّاؤها. النّهار أهدابٌ تحترق، والدّقائق ترجمُ أصولَها.

هل نَحفظُ بطون النّساء، وندّخر أجنّتهنَّ إلى حين؟

هل نقول للأثداء: ترحّلي إلى ملكوتٍ آخر؟

أمن الخطوات تجيء السّلاسل؟

هل الأرحامُ هي القبور؟

حزقيال، أيّها الرّائي،

لا يليقُ بنبوءاتكَ إلا الرَّعد

اسمخ لي، إذاً، أن أصرخَ:

هيروديا، هيروديا،

الدّم يتدفّقُ من العتبات والجُدران والنّوافذ،

وتعرفين جيّداً قلوبَ السّادة – الأنبياء والسَّاسة.

قولي، إذاً، بماذا تنبضُ هذه القلوب وكيف ترقّ، ومتى، وما سرّها؟

لا ترغب الوردة في عطر غيرها. لا يطيرُ طائرٌ حاملاً عشَّهُ.

الأرضُ رحمةٌ، والتّراب هو الأخيرُ والأوّل.

لماذا إذاً تشعوذ الكتب؟ لماذا يوضَع لكلِّ حرفٍ قيدٌ، ولكلِّ إنسانٍ لجامٌ؟

لماذا لا تُرى السّماءُ إلا مملوكةً وموسومةً وموشومةً ومحروسةً ومسوّرة؟ أهي زريبةٌ للغة؟

أهي خزانةٌ لذهب النبوّات؟
هيروديا، هيروديا شيما،
لا يكاد اسمُكِ يُلفظ حتّى تنطفئ الحواسّ.
كلّا، لستِ الرّقْصَ، ولستِ العشيقة، ولستِ امرأة.
عفواً، عفواً حزقيال، أيّها الرّائي.

ج. اعتبار

- كيف تستقبلُ الصّخرة ببولٍ؟ كيف تستقبلها بغائطٍ؟
إمضِ. غطّ قدميكَ بالمصابيح، واستَغْفِز.
(«المياه العذبة والرّياح اللواقح
تخرجُ من تحت صخرة بيت المقدس»)[12]
سقَتِ النبوّات عطشَ الفوضى،
ورمتْ زهورَها في الشوارع.
حيث الشّعراء ذئابٌ ومغاور، وحيث نقتحمُ نحن العربَ، المدنَ لكي نغنّي بصوتٍ واحد:
بسريرٍ مُفرَدٍ، نفتحُ فندقاً،
بفندقٍ مفرد، نصنعُ قارّةً.
أقدامنا أكثر علوّاً من صلواتنا.
والشمس نفسها تغارُ منّا.
الحمدُ والشكر لله الذي خصّنا بهذه الصّفات.
ما أشقى أمثالي – ولستُ أيوب، ولستُ فمَ الذّهب.

د. أوميغا (فلسطينيَة – يهوديَة)

حَسَنٌ أن تتنزّه نجوم فلسطين في زيّ يبتكره الجينز المقدسيّ. حسنٌ أن يتزلّج كوكبٌ عربيٌّ بنقابٍ مثقّبٍ

على حائط المبكى. حسنٌ أن يكون الكاكاو الأفريقيّ ريّاً لعطش الخلايا في غوايات فلسطين.

غيمُ الذَّرة يسحّ، والنّقاب فتوى السّاعة.

من أين تطلعُ هذه القبضات المختلفة المؤتلفة التي تضربُ وجه الغيب؟

من رؤوس الملائكة؟ من جهنّم الذرّة؟ من قيامة العالم؟ من الحوض المقدّس؟

الحوض المقدّس – حاضت نجمة الماضي، وانحفر فيها المستقبل. همَس الغيمُ في أذن الشّاعر:

لا تثقْ. كيف يستريح الله؟ أله كرسيّ؟ أهناك كرسيٌّ يتّسع له؟ ألَهُ سريرٌ ووسادةٌ؟ أله أتانٌ يفتطيها؟ هل يستولي على أرض ابنٍ، لكي يمنحها إلى ابنه الآخر؟

لا شيء يقود إلى المعرفة كمثل الشجرة: قالت الطّبيعة. والإشارة هنا ليست إلى تلك التي عرفها آدم. الإشارة إلى الشجرة التي هي لا جنّةٌ ولا جحيمٌ، «لا شرقيّة ولا غربيّة».

لكن، انْتبه: تقول الطبيعة. واحذر ذلك الكائن المجنّح وراءك.

في شفتيهِ حمَلٌ، وفي كلّ كلمة يتفوّه بها سكّينٌ أو فأس. ولك الحقّ هنا، أيّها الشّاعر، أن تشكّ في أن يكون إنساناً كلّ كائن يحملُ بين كتفيه رأساً آدميّاً.

سأمدّ لكَ حبلاً تتسلّق عليه أو ترقص من آخر الأرض إلى أوّل السّماء من آخر السّماء إلى أوّل الأرض. قالت الطبيعة لهذا الشّاعر. وسوف تستقطرُ عطرك – شعرك

من نباتٍ يشبُّ حول خواصر النّساء. الكذب نفسه سيكون وحده الصّدق. هكذا ستسأل، ويسأل معك آخرون، دون دهشة: أيّة مجزرة هي هذه السّماء؟ أي تعفّنٍ هي هذه الأرض؟

هـ . نشيد يمهّد للختام

في رأسي شَعرٌ شائبٌ كثير

لكن ليس في أحشائي إلا زغبُ الطفولة.

خُذْ كيمياءك أيّها الشّعر: ثقِّفها، هيمن عليها، علّمها كيف تمزج جسدينا بأحلامنا،

وكيف يكون الزّمن جديراً بأن ينتمي إلى نهارنا وليلنا.

وكيف تحمحمُ الدّقائق في عروقنا كأنّها أفراسٌ جامحة.

باسمك أنخلع من نفسي لكي أكون نفسي،

وباسمك أكون الفرح والحزن في شهقة واحدة، وسوف أطبقُ شفتيَّ على أسرارك.

السّماء كمثل لوحة فريدةٍ في متحف الأرض.

وكلٌّ يحارب لكي يصحّ زعمه أنه سارقها الفريد.

في الأعلى، سقفُ السماء السابع يترجرج ويكاد أن يسقط. أواجبٌ، إذاً، أن يُعطى للعاهرين والعاهرات دورٌ عظيم آخر؟

وباسم السّماء يجب أن نوقظَ أيّوب وإرميا وإشعيا من نومهم لكي يروا عذابهم من جديد في بيت

المقدس. ولكي يشهدوا كيف كانوا أحراراً سعداء.

والآن، اذهبي أيتها السَماء،

اتركيني قليلاً لكي أتفقَّد أعضائي.

12 عن: أبي هريرة.

نشيد افتتانٍ لِلاشيء

لا أُومن بعقل الجموع
أومن بالضوء – يشعُّ، ويخترقُ، ويُشير.
يا شجرةَ الحكمة،
كيف أتآخى مع غابة القدس؟
وما هذا الواحد الذي لا يحضر إلا في جنازةٍ، أو على عرش؟
بَعْدُ، لم تأت الكارثة. بعد لم يَجِن الطوفان.
البحر الأبيض يتهيّأ، والمحيطات تجأرُ وتضطرب.
من يَمنَحُ هذا الرّأس الرُّخاميَّ لملك الصّناعات؟ من يقول لهنيبعل: غلبتكَ روما. لكن أنت الذي انتصرتَ؟ ومِن رأسكَ يطلعُ فجرٌ آخر.
ليس جسدي أثيراً. جسدي ترابٌ وعظمٌ. فيزياء أوردةٍ وشرايين. أسكنُ في كوخِ دخانٍ، وأتدثّر بثوب غيمٍ، وعبثاً أحاولُ أن أداويَ السّماء.
يا ليَ من مجرمٍ يعيش بريئاً كالمطر. وذنبي، هذه الآونة، أنّني أنافسُ الضّوء.
انغلقي، إذاً، في وجهي، أيتها السماء. ولكِ هذا العَهد: لن تريني على بابكِ أبداً.

وأنتِ، أيتها الكواكب، لن أطلبَ أن تكوني سلّماً لخطواتي.

ما أكثر الكواكبَ في أحشائي.

غنِّ أيّها العاشق.

هل حنجرتكَ هي عشيقتك؟ هل عشيقتكَ هي حنجرتكَ؟

لا تُجبْ. غنِّ.

الزّمنُ يتدحرجُ صخرةً صخرةً من بين يدي ربّه،

وأطفالهُ جبالٌ من البكاء.

ألمح فوق رأسكَ نجمةً تنطفئ.

أستشفُّ أشرعةً تتمزّق في بحيرات أحلامكَ.

غَنِّ.

مَوْجٌ يرتسمُ في تقاطيعكَ. غناؤكَ مدٌّ وجزرٌ.

حمداً للغناء.

حمداً للعشق: الصَّوابُ والخطأ فيهما توأمان، والحقيقة جرحهما المُشترَك.

وها هو يُقرعُ جرسُ المعنى،

لكن، هل هناكَ مَن يُصغي؟

وماذا يُجدي أن تمدّي يَدكِ إلينا، أيّتها الشّمس؟

غَنِّ، أيّها العاشق،

النّبوءات تفرّ غيرةً منكَ،

وإليك تنتمي فتنةُ الدّهر.

نشيد افتتانٍ لكل شيء

حقّاً، للفضاء في القدس شكل القفص: الكون كلّه ألفُ واحد من الأمتار المربّعة!

كومةٌ من الورق تقفُ على المفارق في شكل كتب مستطيلة. نرى فيها الحبْر يسيل بسرعة عشرين قرناً في الحزف وثلاثين قرناً في الفاصلة، وقروناً لا تُحصى في النُّقطة.

يا لهذه الكومة التي ينقُرها سطراً سطراً هدهدُ سليمان.

هل سقطتْ الكتبُ المقدّسة في الجبّ؟

«صخرة بيت المقدس من صخور الجنّة»[13].

رومٌ، أقباطٌ، آشوريون، كلدانٌ، سريانٌ، كاثوليكٌ، أرمنٌ، أحباش، أكراد، أتراك، شراكسة، أفارقة، مغاربة، لاجئون، فلاحون، مدنيّون، يهودٌ، عربٌ

رطوبةٌ، حرارةٌ، فلافل، بخور، استيطانٌ، احتلالٌ، يمامٌ، حمام، سيّاراتٌ، بيبسي كولا، مآذن، أجراسٌ،

كيلومتر مربّع واحد، لا أكثر!

«باب المقدس أرض المحشر والمنشر»[14].

«من أهلّ بحجٍّ أو عمرةٍ من المسجد الأقصى

إلى المسجد الحرام، غَفَر الله ما تقدّم من

ذنبه، وما تأخّر، ووجبث له الجنّة»[15].

البيت يودّع ذاكرته، والغبار حوله يشمّر عن أطرافه،

في ريح تُشَعِّثُ رؤوسَ الأيام

في عُنُفٍ – جرادٍ يلتهمُ نباتاتِ الوقت.

وكانث النّساء قد زرعْنَ أرحامهنَّ في أرض الحلم،

وفوَّضْنَ لله أمر الحصاد.

بينهنَّ من تموتُ مساءً وتولد فجراً،

بينهنَّ من تكتب تنهّد العاشق بصبر الحكيم

وبينهنَّ من تسير وعلى كتفيها نِيرٌ تحسبه فَرْواً.

لا صوتَ إلا ما يخرجُ من أعاصيرَ ترتطمُ بالمعدن.

يقفزُ الضوء حيرانَ من معدنٍ إلى آخر.

أشباحٌ في أشكالٍ تُفكِّك وتُركِّبُ، تحت إبط الفضاء.

ويبدو المتوسّط – البحر كأنّه عرشٌ ذريٌّ تارةً، وتارةً كأنّه كرسيّ الله.

والعَصر شحمٌ تتناهبُهُ أيدٍ معروقةٌ. على المعدنِ، يجلسُ جسمُ الشّهوة. على الإسفلت تتمدّد روحُها.

وأنتَ أيّها الماءُ،

هل حقّاً ستَنْفَصِلُ عن الطّين؟

بَعْثِرْ نجومكَ على القُدس، أيّها الليل.

أنبياء اليقظة يَنامُون بين أشلائها، وبين قدميها يقف الطّين ويَنقسمُ صحارى وأنفاقاً.

ماذا سيحدثُ لتلك الألواح السّماوية التي هبطت عليها؟

ماذا سيحدث للشياطين وجيوشهم، للملائكة وآلهتهم؟

وماذا سيحدث للأرض وأبنائها؟

هلْ أحدٌ يعرف القدس غيرُ النّجوم؟

(بيروت – بلومبرغ – باريس، تموز – آب 2010)

13 ابن عباس.

14 عن: أبي ذرّ.

15 عن: أمّ سلمة، زوج النبي.

ii – الصور

أ. صورة أولى لمعنى القدس

كيف نعتذر من وَزِرِ وطئةُ أقدامنا، يرقد حول أهداب هذه المدينة؟

طرقٌ مسدودةٌ كتبٌ تنزف دماً وفي الطّين

صراخٌ لا يقدر فم اللّغة أن يقصّه علينا.

كيف نمنحُ البرعم وسادَةُ الأخير؟ كيف ننقلُ حبّنا إلى كبرياء الحجر؟

أليفةٌ ووحشيةٌ هذه المادّة التي تُسمَّى دم المدينة دمٌ يغورُ

في كهف الكلماتِ، لا تتّسع له العين

أعطِ حنجرتكَ، أيّها الفضاء، إلى يَمامةٍ كُسِرَ جناحاها

تقنَّع ببلّور أنفَاسنا واشرح صدرك لنا.

دماءٌ كثيرةٌ تقرأ وتكتب

أنقاضٌ كثيرةٌ ترتجل ألواناً وصوراً

نساءٌ كثيراتٌ يسبحن في بحيرة الذّاكرة

هَباءُ عَسكَرٍ زفيرُ ثُكناتٍ

ماذا تَفعَلُ أيّها الأبَديَ الذي يأخُذُ الزّائلَ بأطرافِ مِكْنَسَةٍ

ويقذفُ به في فُزن الهَوْل؟

ولماذا لا تَسقي الملائكةَ إلاّ سَمّ الشياطين؟

هو

لا يعرف أن يُمسكَ ببندقيّة
يرسمُ جراحَهُ على أجنحة الضَّوء.
لِلأشياءِ نهاياتٌ
تهبط على سلالم اللاّنهايات والأيّام دفاترُ تتطايرُ
أوراقها في مسافاتٍ خرساء كيف يُعلّم وجهه
أن يعود إلى طفولته الأولى
جمرٌ في أحشائِه جمرٌ في تاريخه جمرٌ في
خطواته
وما هذا الحِلف بين السّماء والمال؟

ب. صورة ثانية

تقدّم أيّها الغريبُ وادخل المدينة من أيّةِ زاويةِ من
أيّة
جهة احرثْ وازرع واحصدْ ما شئتَ متى
شئتَ كيفما شئتَ
أهلاً وهَيْتَ لك.
ليس في الطريق إلاّ ذهَبٌ يَستَأصِلُ العقل وإلاّ فِضّةٌ
ترفع سجونها قلاعاً حتّى في الهواء والضّوء والماء
القانونُ عبدٌ لكلّ ما سواه الكذب سيّدٌ على الكون
ولا شزعَ للشّرف
ما أشدّ عذابَك، أيّها الصّدق.
بشفتي رغيفٍ يُقال الواقع،
بيدَيْ درهمٍ تكتب أعماله وأيّامهُ،
وما تكون ألوانُكِ، أنتِ يا لوحةَ الحقيقة؟

ج. صورة ثالثة

هل السَماء العربيّة في الشارع هيلانةٌ جديدةٌ؟ نهدانٍ عاريان
فخذانِ جامحتان مِن الآلهة يتحدّر عُشّاقها جميعاً
ولا خوف لا وصاية اهجموا واقْتَحِموا
زمنٌ لا يعرف أن يصلّي
إلاّ صلاة الموْتى.
هل تريد أن تُوصَف بأنّك مؤمنٌ؟
إذاً، اقتلْ.
ما هذا الشَّبَحُ السرطانيّ الذي يتلبّس بالواقع،
بين ماء الخليج وماء المحيط؟
ماذا تفضّل أيّها العابِرُ:
سِحْرَ المُخيّلة، أم سِحْرَ اللّغة؟
وما هذا الحاضر الذي يوقظ الماضي، ويُعيد ترتيب أيّامه وأحداثِه؟
كيف تقدر الأبجدية أنْ تحتضنَ هذه الطبيعة؟
طبيعةٌ كمثل مخطوطة رمليّةٍ تتمزّقُ وتتناثَرُ بين أصابعِ
إعصارٍ أعمى.
لا صوتَ إلاّ ذلك الذي يخرجُ مرتطماً بالمعدن. ويقفز الضوء
من معدن إلى آخَر كأنّه نورسٌ يرتجف رعباً. أشباحٌ صغيرةٌ
تتغلغل تحتَ إبط الفضاء. دواليبُ تبدو كأنّها تتحرّك

بأجسام البشر. ومن بعيد تبدو الحقول كأنّها
وسائدُ وأسرّةٌ لعروشٍ ذرّية وممالكَ تُبسَطُ بمشيئة الله.
الأفقُ أشعثُ أغبرُ من عنقه يتدلّى عِقدٌ حديدٌ:
الحديد، وحدهُ، ينطق بالحقّ.

د. صورة رابعة

ينهضُ الطّين، واقفاً. يُجبَل، وينقسم قبائلَ قبائل.
ألواحٌ وأساطير. رقمٌ ومآثر. في كلّ ثمرة يكمن شيطانٌ،
والوجه الثمرة الأولى.
زمنٌ يَتَرَضْرَضُ. وأين المكان؟
جاء التاريخ بدعوةٍ من الرَّماد
طاف رأى سألَ
الطّرقُ تَسْوَدُّ الأبواب تَنفَتِحُ والكلماتُ
قنابِلُ وصلوات
لا لونَ في الألوان التي تَعرضها، عادةً، في رواق الأفقِ
أجنحة الطّيور
لا أجْنِحَةَ للطيور
لا طيور.
– كيف نُجابِهُ وحشيّة الدّاخل بوحشية الخارج؟
– مُتَّهِمٌ/ مُتَهَمٌ: كيف أعيش بين حدّين يتباريان في قَتْلي؟
– هل الاتّهام والفَتْك رياضةٌ وطنيّةٌ؟

– هل تريد، اليوم، أن تكونَ صادقاً؟ إذاً، اكذبْ.
أولئك عرفوا كيف يَبْرعون في فنّ التّحْنيط
لا يُحنّطون الأجسامَ وحدَها يُحنّطون
كذلك العقول والأفكار وهم في طريقهم
إلى أن يبْرعوا في تحنيط الضّوء لا ضوء
الخارج وحده بل أيضاً ضوء الدّاخل
«لا غالِب لهم»، هكذا يَصِفون أنفسهم.
لا أقفال للبيوتِ التي شيّدوها وتركوها إرْثاً
لأبنائهم البيوت هي نفسها الأقفال
والآباء الأسلافُ الذين تَفيّأوا ظِلالهم يُطوون
«طَيَّ السجلّ» يُخمَلون من جيلٍ إلى جيل ومن
دارٍ إلى دار في الثّياب، حيناً في الصّحون
والملاعق حيناً وغالباً في العقول والألسنة.
رجالٌ لا فَرْقَ بينهم وبين الأمتعة
ويُقالُ عنهم: «لم يرتكبوا في حياتهم أيَّ خطأ،
ولم يتركوا لأبنائهم إلاّ المآثر».
طُوبَى لأقدامهم وخطواتِها
تتنقّلُ كمثل سفُنٍ على مَتْنِ الغيم.
رِبْحٌ مُسَبَّقٌ في النَّعيم
ماذا تفعل الموازينُ ماذا تروي المصابيح
وبماذا تهذرُ هذه الرُّسوبات الآدميّة؟
رجالٌ – يُقال إنّهم يقيمون في الكامل المُحْكَمِ الممتلئ
مُتَّكِئينَ على فُرُشٍ من السّلاحف.

أيّتها الحقائق الآتية،
لا حَظَّ لكِ في السَّيْرِ على دروبهم.
مَع ذلكَ،
لا يتوقّفُ جيش الطَّبيعةِ عن اقتحام قِلاعهم.
يدعمه دائماً جيشُ الطّبع.
إشمَلهُمْ برعايتكَ، أنتَ أيضاً، أيّها الفراغ.
ماؤُهم لا يجري:
لا يريدُ ولا يُحبُّ أن يتعرّف على شَقيقهِ الهواء.
ولغتهم نفسها تشكو نائحةً:
في كلّ كلمةٍ من كلماتي
طاغيةٌ
وشخصٌ مخزُوزُ العُنق.
في كلّ حرفٍ من حروفيَ
مُفْتَرسٌ،
وعندليبٌ مَيْت.
من أينَ لي أنا الملائكيّة،
أضراسُ الشيّاطين؟
يقولونَ: الكونُ كلّهُ محفوظٌ في كلماتٍ نُقِشَتْ على
جذعِ
تفّاحةٍ يُغنّيها مزمار الأرض.
– «مزمارٌ، كمثل الحيّة، ينقلبُ إلى عصا»،
همسَ عابِرٌ لم يقُلْ اسمهُ.
أعرفُ الجسدَ عَضَلةً عَضَلةً، وخليّةً خليّةً،
مع ذلك، سأسألُ هذا العابر:

من أينَ لكَ هاتان الشَفتان؟

ثمّةَ أسئلةٌ كثيرةٌ تضغطُ عليّ، لكي أطرحَها على أولئكَ،

أولئكَ بالذّات،

ولديَ أجوبةٌ كثيرةٌ لا تُطيعني.

سأظلُ صديقاً للأسئلة جميعاً،

ولن أهادنَ الأجوبة.

كلاّ، لا تكفيني هذه المؤونَةُ التي يقدّمها تاريخ الخطوات،

تلزمني مؤونةٌ أخرى يقدَمها تاريخ الجسد.

تَنَزّهْ، إذاً، في أحشائي آخِني أيُها الشكّ

وماذا نفعلُ

عندما تكون المصادَفَات هي، وحدَها، البراهين؟

هـ. صورة خامسة

كوكب الزّهرة يُضيءُ كاحل امرأةِ اسمها الزُهرة

قمرٌ يبتسمُ لكلْبٍ ينبحُ عليه

لماذا ترتعشُ خاصرتُكِ أيّتها المدينة؟

إذاً، عرفْتِ لماذا تتحرّك السّماء كمثل السّتارة، تارةً،

وتارةً كمثل دَوّار الشّمس؟

وأنتَ،

أيّها الهيكل الكامل المليء المحْكَمُ قُدنا –

إلى أينَ تقودُنا؟

وأينَ هي موسيقى الفراق؟

وأينَ مَن ينحازُ معنا إليها؟
القتل – الرياضة السيّدةُ
القتل بالعين بالسنّ بالأنف بالصَدر
القتل باليد بالقدم
القتل باللّسان بالكلمة بالكرسيّ بالرّغيف بجرعة الماء
القتل بما ملكت أيمانكم
القتل لتحسين النّسل لكمال العقل
«(قُتِلوا قُطّعوا):
ارفعوا هذا الرأس عن هذه المائدة ضعوه على حدةٍ افحصوهُ
تأكّدوا أنَّه لا يختزن بقايا أفكارٍ وأحلامٍ يمكن أن تشوّشَ
الصُّورةَ التي يُقال إنّ الخالقَ رسمَ صُوَرَ مخلوقاته على مثالها
القتل الفحلُ
لكي تتّسع السّماء وتزدهر مدائن النّخل
بَقْلٌ بَقْلٌ بَقْلٌ
عَرَقٌ يتصبّب من صدور الأيّام حشدٌ من الذّئاب
والأرانب يتسلّق أعمدةَ التّاريخ دخان
القنابل أليفٌ كثيفٌ غامر والزّمن فَهْدٌ يترهّلُ
يَهرمُ تسقط أذناه وأسنانه وأنيابه وتسقط
كتفاه – هل سيقدرُ أن يمدّ يديه لكي يسلّم على الموت؟
اهجموا اقتحموا ادخلوا البيوت من سُقوفِها

ولتدخل معكم بَقرةُ الجراح إلى جسم اللّغة ليدخلْ
ثورها وأبناؤه لتدخل الشّوارع والأزقّة ولترقد
جميعاً في سرير المخيّلة لتدخل قطعان الصّور
وليدخل

رعاة المعنى

اسمعيني أيّتها اللغة أريد أن أكسر سندان الورق
بمطرقة الحبر.

فكِّرْ، أيُّها الشّاعر، في المعدنِ اللّدُنيّ واللّهَب الذي
يَضْطَرِمِ في آياته في الرَّجْمِ الذي لا يتوقّف عن
الحلم والرّقص في المعجم الذي تُعيد ابتكاره
لغاتُ الْفَثْكِ وأخيه الفلَك في المدينة التي أُنْزِلث
سلطانةً على المدائنِ

فكِّرْ اتركْ أفكاركَ تختمر تحت نقابٍ بلا لون
تَذَكّرْ وذَكّرْ

فيلُ الهجرة يَنطَحُ الطُرقَ وسنابكَ القوافل
خُرَ بُرَ / بُرَ خُرَ: ضجيجُ ملائكة يثقبونَ جدرانَ الدُنيا.
لا بَابِلُ بل شوارعُ وبيوتٌ تُسمَى مقابرَ وكهوفاً
لا بَابِلُ بل تاريخٌ جِنسِيٌ لأعضاءِ غيرِ جنسيّة
لا بَابِلُ بل ظَهرُ عنقاءَ يَنكَسِرُ تحت كابوسِ الرّمَاد
لا بابِلُ بل أيّامٌ تُسمَى أنقاضاً ترعاها أوثانٌ خضراء
لا بَابِلُ بِلْ أبابيل.

آهِ يا روحي التي غابت ولم ترجع بعد،
هل أقول كمثل غيريَ، ابتكِزني أيّها الوَهمْ؟

و. صورة سادسة

حبالٌ يجدلها تاريخ القَتل تتدلّى على شُرفاتِ
المدائنِ نتدلّى فيها
تجتمع حولنا طيورٌ مَقصُوصَةُ الأجنحة وتسأل ساخرةً:
لماذا؟
وكيفَ لا تطيرون؟
الوهم الوهم
نشكَ في أنّ لنا أيديَ وأقداماً (أهنالكَ أيدِ وأقدامٌ غير تلك التي تتكوّن في أرحام القتل؟)
يُمكن أنتَ يا مَن تُسمّى الإنسان أن تسمّيك السّياسة
الشّرعيةُ فأراً أو حوتاً أن تحوّلكَ إلى كيسٍ تُسكَبُ
فيه العقائدُ كمثل أكداسٍ من القمامة آنذاكَ، هيهات
أن تسمع آدم يناديكَ: يا بُنيّ!
كلاّ لن أقدرَ يوماً أن أندرجَ في جاذبيّة القَتْلِ،
يا أرضَ الله،
ماذا إذاً ستقولين عنّي؟ وماذا ستفعلين؟
نعم سأظلّ مأخوذاً بالشُّهب التي تتلألأ في جوف
الحبّ، مأخوذاً بالحبّ.

ز. صورة سابعة

الموتُ يتوالدُ الموتُ يتراكمُ قبرٌ يتراجعُ قبرٌ يتقدّمُ
شاهدةٌ تقرأ الطبيعة وما وراءها عصب السّماء
يتغلغل في جسم الأرض والغريزةُ جثّةٌ يُتَوّجُ عليها
الرّصاص

ثُوري أيّتها الفضّة قولي للأطفالِ تحوّلوا إلى متاريس

قولي للنساء انغَمِسْنَ في عجين الشَّهوة

الموتُ يتراكم الموتُ يتوالد

هدوءاً أيّتها البوصلة ولكن لا تَتَوَقَّفي بدأت موسيقى الرّصاص

تبتدع تآبين القَتلى نَجْمٌ راكبٌ حصاناً يعبر تحت

قنطرةٍ حاملاً دميةً اسمها السياسة سياسة

تمتهن البغاء تحتَ سماءٍ تُرَبِّتُ الصلاة على كتفيها

مَن يمتحن تلك الأطلالَ التي نقضت حِلْفَها مع الله؟

جبلٌ يركضُ كأنه الرّيح

نَهرٌ يصعدُ لكي يشربَ الغيم

لكن، ماذا يفعلُ الربيع في هذه المدينة،

بين أطفالٍ يموتون خنقاً أو حرقاً؟

ماذا يفعلُ في لغةٍ ترفضُ أن تقرأ غيرَ

الخريف؟

وأنتِ، أيّتها الجحيم، في أيّة سماء تقيمين؟

من أيّ سماء تهبطين؟

(باريس، 15 آذار 2012)

للشاعر

(آثرنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة)

شعر

قصائد أولى، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1957؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

أوراق في الريح، ط 1، دار مجلة شعر، بيروت 1958؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

أغاني مهيار الدمشقي، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1961؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1965؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

المسرح والمرايا، ط1، دار الآداب، بيروت، 1968؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

وقت بين الرماد والورد، ط1، دار العودة، بيروت، 1970؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1980.

هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، 1980.

مفرد بصيغة الجمع، ط1، دار العودة، بيروت، 1977؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

كتاب القصائد الخمس، ط1، دار العودة، بيروت 1977؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت، 1985.

شهوة تتقدّم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.

احتفاءً بالأشياء الواضحة الغامضة، دار الآداب، بيروت، 1988.

أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، 1994.

الكتاب I، دار الساقي، بيروت، 1995.

الكتاب II، دار الساقي، بيروت، 1998.

الكتاب III، دار الساقي، بيروت، 2002.

فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت، 1998.

تنبَّأ أيها الأعمى، دار الساقي، بيروت، 2003.

أوَّلُ الجسد آخِرُ البحر، دار الساقي، بيروت، 2003.

تاريخ يتمزق في جسد امرأة، دار الساقي، بيروت، 2007.

ورّاق يبيع كتب النجوم، دار الساقي، بيروت، 2008.

اهدأ هاملت. تنشّق جنون أوفيليا، دار الساقي، بيروت، 2008.

ليس الماء وحده جواباً عن العطش، دار الساقي، بيروت، 2008.

أشجار تتكئ على الضوء، دار بدايات، دمشق، 2010.

فضاء لغبار الطلع، مجلة «دبي الثقافية»، 2010.

الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط1، دار العودة، بيروت،1971؛
ط2، دار العودة، بيروت، 1975؛
ط3، دار العودة، بيروت، 1979.
الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، 1985. الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، 1988.
الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.

دراسات

مقدمة للشعر العربي، ط1، دار العودة، بيروت، 1971؛ ط5، دار الفكر، بيروت، 1986.
زمن الشعر، ط1، دار العودة، بيروت، 1972؛
ط6 مزيدة ومنقّحة، دار الساقي، بيروت، 2005.
الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):
الأصول،
تأصيل الأصول،
صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،
صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري. دار الساقي، 2001.
فاتحة لنهايات القرن، ط1، دار العودة، بيروت 1980؛ ط2، دار النهار، بيروت، 1998.

سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، 1985.

الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت 1985.

كلام البدايات، دار الآداب، بيروت 1989.

الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، 1992.

النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، 1993.

النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، 1993.

ها أنت أيها الوقت (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت 1993.

موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، 2002.

المحيط الأسود، دار الساقي، بيروت، 2006.

مختارات

مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، 1962.

ديوان الشعر العربي،

الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.

ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.

مختارات من شعر السيّاب (مع مقدمة)، دار الآداب، بيروت، 1967.

مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

(الكتب الستة الأخيرة اختيرت وقُدِّم لها بالتعاون مع خالدة سعيد).

ترجمات

الأعمال المسرحية لجورج شحادة:

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، 1972.

السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، 1972.

مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، 1973.

البنفسج، وزراة الإعلام، الكويت، 1973.

السفر، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة بالعربية والفرنسية، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان - جون بيرس

منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976؛ طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1999.

منفى وقصائد أخرى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، 1986.

مسرح راسين

فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت، 1979.

كتاب التحولات، أوفيد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.

الأرض الملتهبة، دومينيك دو فيلبان، دار النهار، بيروت، 2004.

نبذة عن الكتاب

دَخلت العاشقة حديقة بيتها في القدس حيث يُقيم حبّها.

الأزهار كلّها تحوّلت إلى شِباكٍ تطوّق خطواتِها.
ضحكت وقالت:
هَلْ عليّ، إذاً، أن أخيطَ من جديدٍ ثوباً آخر لكل زَهرة؟
أمسِ، حين التقيتُها، همس الليل في أذنيّ:
العطرُ ابنٌ للوردة،
لكنّه يُولد شاباً.

نبذة عن المؤلف

أدونيس علي أحمد سعيد، شاعر سوري، ولد في 1930 بقرية قصابين في سوريا. تبنى اسم أدونيس تيمناً بأسطورة أدونيس الفينيقية، الذي خرج به عن تقاليد التسمية العربية منذ عام 1948. أصدر مع يوسف الخال مجلة "شعر" عام 1975. ثم أصدر أدونيس مجلة "مواقف" بين عامي 1969 و 1994. درّس في الجامعة اللبنانية، ونال درجة الدكتوراة في الأدب عام 1973 من جامعة القديس يوسف. أستاذ زائر في جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا. نال عدداً من الجوائز

العالمية وألقاب التكريم وتُرجمت أعماله إلى لغات عديدة.

كتب أخرى للمؤلف

"الثابت والمتحول 1"، "الثابت والمتحول 2"، "الثابت والمتحول 3"، "الثابت والمتحول 4"، "الأعمال الشعرية الكاملة"، "اهدأ هاملت تنشق جنون أوفيليا"، "تاريخ يتمزق في جسد امرأة"، "تنبّأ أيها الأعمى"، "ديوان البيت الواحد"، "ديوان الشعر العربي"، "رأس اللغة جسم الصحراء"، "زمن الشعر"، "الكتاب: أمس المكان الآن 1"، "الكتاب: أمس المكان 2"، "الكتاب: أمس المكان الآن 3"، "المحيط الأسود"، "ورّاق يبيع كتب النجوم"، "فاتحة لنهايات القرن"، "الصوفية والسوريالية"، "مقدمة للشعر العربي"، "أول الجسد آخر البحر".